نظرية السببية في المنظور الكلامي و موقف العلم الحديث منها

الدكتورة /ليلي سليمان علي بكر

استاذ مساعد العقيدة والفلسفة بكلية الدرسات

الاسلاميه والعربية للبنات بالمنصورة

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوي وقدر فهدي ،لـه مقاليد السماوات والارض ،يحي ويميت وهو حي لايموت وهو علي كل شيء قدير ،والصلاة والسلام علي المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلي الهوصحبه اجمعين ،وبعد-------

فقد شغلت مسالة علاقة الأسباب بالمسببات أو العلل بالمعلولات في الامور الطبيعية اذهان المتكلمين فاكثرو الكلام حولها نظرا لتعلقها بمسائل كلامية مهمة كعموم قدرة الله إرادته ،أوعلاقة الله سبحانه وتعالي بالعالم من حيث الإيجاد والتخصيص وكذلك معجزات الإنبياء الحسية من ناحية إمكان وقوعها

وهل السنن الكونية التي خلق الله سبحانه وتعالي العالم الطبيعي عليها تسير بنظام دقيق قائم علي الترابط او التلازم بين العلل والمعلولات أو الاسباب والمسببات ؟

وما موقف القائلين بذلك من إمكانية المعجزات الحسية وهل لغير الله تعالي قدرة

علي التأثير في الظواهر الطبيعية بحيث يقدر أن يفعل اشياء خارقة لقوانين الطبيعة؟

هذا ما سأذكرآراء المتكلمين والعلم الحديث فيه في هذا البحث الذي يشتمل علي مقدمة وأربعة مباحث .

المبحث الأول :توضيح معني السببية والعلية وبيان الغرق بينهما

المبحث الثاني :راي الأشاعرة في نظرية السببية

المبحث الثالث:رأي المعتزلة وابن حزم وبعض السلف في نظرية السببية

المبحث الرابع :موقف العلم الحديث من نظرية السببية .

المبحث الأول : توضيح معنـي : السببية ، العلية، العلم الحديث

تعريف السبب في اللغة والاصطلاح :

السبب في اللغة الحبل الذي يصعد به إلي النخل ، والجمع أسباب ، ثم استعير لكل شئ يتوصل به الي أمر من الأمور فقيل : هذا سبب هذا ، وهذا مسبب عن هذا ، قال تعالي □□□□□ □□□□□□□□□ . ([1])

ومعناه :أن الله تعالي أعطاه من كل شيء معرفة و زريعة يتوصل بها فاتبع واحدا من تلك الأسبا ب وعلي ذلك قوله تعالي □□□□□□□□□□ . ([2])اي لعلي أعرف الزرائع والأسباب الحادثة في السماء فاتوصل إلي معرفة ما يدعيه موسي([3])

السبب في الاصطلاح :

وردت عدة تعريفات اصطلاحية لمعني السبب فهو عند علماء الشريعة بمعني :

مايكون طريقا للوصول إلي الحكم غير مؤثر فيه . ([4])

والسبب في اصطلاح الفلاسفة :هو المبدأ الذي يفسر الشيء تفسيراً نظرياً ، وهو مايتوصل به إلي غيره ، أو هو ما يحتاج اليه الشيء في ماهيته أو وجوده ،وذلك الشيء يسمي مسَببا وهو إما تام أو ناقص .([1])

---

[1] سورة الكهف الآيتان ٨٤ ، ٨٥

[2] سورة غافر الآيتان ٣٦ ، ٣٧

[3] انظر : لسان العرب لابن منظور ج ١١، ص ٨٣ ط دار المعارف ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ص٢١٧ ط مؤسسة فؤاد بعينو ، المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني ج١ ص ٢٢٠ ط مطابع الأفست بشركة الاعلانات الشرقية

[4] كشاف إصطلاحات الفنون للتهانوي ، ج٢ ص ٩٢٤ تحقيق رفيق العجم ط مكتبة لبنان

والسبب التام :هو الذي يوجد المسبب بوجوده فقط ومنه قولهم :سبب الوجود والسبب غير التام أو الناقص هو الذي يتوقف وجود المسبب عليه ،لكن لايوجد المسبب بوجوده فقط ،([2]) وينقسم الي أربعة اقسام ، لأنه إما داخل في الشيء وكان الشيء داخل معه بالقوة فسبب مادي ، أوبالفعل فسبب صوري ، وإما غير داخل ،فإن كان مؤثرا في وجوده فسبب فاعلي ، أو في فاعلية فاعله فسبب غائي ،والمراد بهذه الأسباب الغير تامه أو الناقصة هي الاسباب الكونية .

والسبب عند علماء النفس : يطلق علي كل حالة نفسية شعورية تئثر في حدوث الفعل الارادي ،وهو قسمان :عقلي وانفعالي ،ويسمي الاول باعثاً والثاني دافعاً

وعند علماء الاخلاق : هو مايفضي الي الفعل ويبرره وهو مرادف للحق ، وقد يطلق علي الحجة التي يعتمد عليها في اثبات الحق فيكون بهذا المعني قوياً او ضعيفاً . ([3])

معني السببية :

السببية هي : العلاقة بين السبب والمسبب ،وتختلف معاني السبب بحسب ملاحظة الباحث لنوعه فقد يكون الملاحظ في السبب الظواهر الكونيه فيكون السبب مبدأ عقلياً ويعبرون عنه بقولهم : لكل ظاهرة من الظواهر سبب اي مبدا يفسر وجوده وهذا ما اكده الفيلسوف (كانت)([4]) في قوله بان السببية تقوم علي مبدأين :

مبدأ الإحداث أو الإنتاج : ويوجب ان يكون لكل حادث سبب يتوقف وجوده عليه قبل حدوثه

أما المبدأ الثاني : فهو مبدأ التتابع الزماني وفقاً لقانون السببية ويوجب ان تحدث جميع المتغيرات وفقا لقانون الارتباط بين السبب والنتيجة . ([5])

---

[1] المعجم الفلسفي د / جميل صليبة ج١ ص٦٤٧ ، ط الشركة العالمية للكتاب بيروت لبنان ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

[2] التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ص١٠٣،مصطفي الحلبي

[3] انظر المعجم الفلسفي ج٢ ص ٩٥

[4] انظر كشاف اصطلاحات الفنون ج٢ ص٩٢٤ ، المعجم الفلسفي ص٩٤

[5] هوفيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر ولد بمدينة كونجسبرج من أبوين فقيرين علي جانب كبير من التقوي والفضيلة ،كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة ،حيث ابتدع نظاما مبتكرا في نظرية المعرفة هو مزيج بين المدرستين التجريبية

والسببية بهذا المعني أي العلاقة بين السبب والمسبب بالنسبة للظواهر الكونية هي النوع المقصود أو محل الدراسة في هذا البحث .

الفرق بين السبب والعلة

السبب في المعني الاصطلاحي مرادف للعلة الان البعض يفرق بينهما من وجهين :

احدهما : أن السبب مايحصل الشيء عنده لا به ، والعلة مايحصل به .

والثاني : أن المعلول ينشأ عن علته بلا واسطة بينهما ولا شرط ،في حين أن السبب يفضي الي الشيء بواسطة أو بوسائط ، ولذلك يتراخي الحكم عنه حتي توجد الشرائط وتنتفي الموانع ، أما العلة فلا يتراخي الحكم عنها اذ لاشرط لها ،بل متي وجدت اوجبت وجود المعلول.([1])

تعريف مصطلح العلم الحديث :

كلمة علم في اللغة مشتقة من الفعل علم ،أي أدرك يقال :علم الشيء يعلمه علما :عرفه ورجل علامة أي عالم جدا والهاء للمبالغة ،وعكسه الجهل ، ويطلق كذلك علي الدلالة والإشارة والعلامة ([2])

وفي الإصطلاح هو حصول صورة الشيء في الذهن أو علي الإعتقاد الجازم المطابق للواقع أو علي إدراك حقائق الأشياءوعللها أوإدراك المسائل عن دليل ، أو علي الملكة الحاصلة عن إدراك تلك المسائل([3]) وقد ورد ايضا في تعريف العلم انه مجموعة من المعارف والحقائق والخبرات الإنسانية التي تشمل العلوم كلها الطبيعية والإنسانية والإجتماعية ، وهو و إن كان مرادف للمعرفة إلا أنه

والعقلية ،فأهل المدرسة التجريبية يرون أن المعرفة لاتكون إلا من طريق التجربة أما اهل الطريقة العقلية فيرون أن العقل وحده يمدنا بالمعرفة ،وخالفهم كانت في ذلك حيث رأي أن إستخدام العقل وحده دون التجربة لايقود إلي المعرفة بل يقود إلي الأوهام ،أما إستخدام التجربة وحدها فلا تقود إلي فلا تقود إلي معرفة دقيقة ولا تعترف بوجود مسبب ،وكان فكره مؤثرا فيمن أتي بعده تأثر بهالفلاسفة الألمان مثل هيجل وشوبنهاور ونيتش

[1] انظر المعجم الفلسفي ج٢ ص٦٤٨

[2] مختار الصحاح ص١٩٠

[3] المعجم الفلسفي ج٢ ص٩٩

يتميز عنها بكونه مجموعة معارف متصفة بالوحدة والتعميم ،لأن غايته هي الكشف عن العلاقات الضرورية بين الأشياء كما أن المعرفة ليست كلها علما ،لأن المعرفة صفة لاتقتصر علي الإنسان وحده بل ان الحيوان ايضا يكسب معرفة كلما علمته محاولاته الماضية أن يستجيب لبيئته استجابة تحقق له أغراضه بأيسر جهد ممكن ،والتجارب التي اجراها علما النفس علي تعلم الحيوان تؤدي الي أن الحيوان يظل يقلل من عدد اخطائه مع توالي تجاربه حتي ينتهي إلي مرحلة يستطيع فيها ان يعرف الطرق الموصلة إلي الهدف المقصود دون أن يبذل في سبيل ذلك حركة جديدة لا تساعد علي السير في الطريق الصحيح ومن هنا قيل أن مفهوم العلم أخص من مفهوم المعرفة ([1]) لأن المعرفةتنقسم إلي قسمين معرفة علمية وأخري عملية أما العرفة العلمية فهي أعلي درجات المعرفة او المعرفة الكاملة وكل علم له موضوعه ومنهجه الذي يميزه عن غيره إلاأن الفلاسفة يصنفون العلوم المختلفة ويرتبونها ليوضحوا اوجه التشابه والإختلاف بين موضوعاتها ومنهجها وتعتبر أكاديمية العلوم القرنسية والجمعية البريطانية لتقدم العلوم هما أول من استخدما كلمة (علم) بمعني العلوم الطبيعية التجريبية دون غيرها([2]) .

[1] انظر المنطق الوضعي د/زكي نجيب محمود ح٢ ص٧ ط مكتبة الأنجلو ،ط ٣

[2] الإسلام وفلسفة العلم ص ٣١،٣٢ ٠المعجم الفلسفي دجميل صليبة ج٢ ص٩٩ ١٠٠

المبحث الثاني :رأي الاشاعرة في نظرية السببية

هل العلاقة بين السبب و المسبب علاقة لزومية أو ضرورية لاتتخلف بحسب الواقع ، أم أنها علاقة راسخة في الذهن لاتتخلف بحسب العادة فقط ؟

وللإجابة علي ذلك نقول : إن القران الكريم الذي هو المصدر الاول للعقيدة الاسلامية بين لنا في كثير من اياته أن الله سبحانه وتعالي يتصف بالقدرة المطلقة علي الخلق و الايجاد و الإعدام وكذلك من صفاته الواجبة له سبحانه الارادة التي تخصص الممكنات ببعض ما يجوز عليها من الامور المتقابلة ، والقدرة والارادة الاهييتان غير مرتبطتين بأسباب لا في الإيجاد و لا في التخصيص ، فهو سبحانه وتعالي يوجد الاشياء من لاشيء يقول تعالي : □□□□□□□□□□□□□□□

□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□

(١) □□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□ (٢) □□□□□□□□□□□□□□

□ (٣) **فهذه الايات ومثيلاتها كثيرة في القران الكريم تدل دلالة واضحة علي ان الله تعالي خلق هذا الكون بما فيه ومن فيه بقدرته المطلقة ، وابدع نظامه هذا النظام الدقيق العجيب الذي اشتملت عليه المخلوقات كلها من الذرة الي المجرة ، فالعلم بما فيه من إبداع ونظام وتدبير وتخصيص لممكناته بصفات**

دون اخري من خلق الله سبحانه وتعالي خلقا غير مشروط بوجود اسباب وانتفاء موانع فهو القائل في كتابه : □□□□□□□□□□□□□ (٤)

وقد ظلت هذه المسالة واضحة في عقول المسلمين الاوائل الي أن عرفوا الفلسفة اليونانية عن طريق ترجمة الكتب اليوننية الي اللغة العربية ورأو أن هذه الفلسفة تحمل في طياتها آراء متباينة حول مسالة وجود العالم ، فمنهم من فسر ايجاد الموجودات بالمادة والاتفاق أي الصدفة ، ومنهم

---

[١] سورة الملك الايات من ١ : ٤

[٢] سورة الحشر الاية ٢٤

[٣] سورة البقرة الاية ٢١

[٤] سورة يس الاية ٨٢

من قال ان الموجودات تفيض عن الله تعالي أو تصدر عنه صدورا غير مباشر عن طريق وسائط ،وكانت هذه الافكار وامثالها والتي وردت في هذهالفلسفة سببا مباشرا لبحث هذه المسألة في الفكر الكلامي ،حيث ادت الي ظهور تساؤلات حول ارتباط الاسباب بالمسببات وهل تحدث المسببات بخلق الله تعالي المباشر لها ، أم انه تعالي اودع في المخلوقات طبائع أو قوي سببية بحيث إذا وجدت هذه الاسباب وانتفت الموانع وجدت هذه الاشياء وجودا ذاتيا ، بمعني :هل هناك علاقة حتمية بين السبب والمسبب أم أن هذا الامر راجع لقدرة الله تعالي وارادته ؟

اختلف المتكلمون في هذه المسألة وكان لهم ثلاثة آرآء فيها

الرأي الاول للأشاعرة :

ويقولون بنفي التلازم الضروري بين الأسباب والمسببات أو العلل والمعلولات في ألامور الطبيعية ،فليس من أفعال الله تعالي ولا من تصرفه في خلقه مايصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودي بدون علم ولا إرادة ، ففعل الله سبحانه وتعالي ليس فعلا ضروريا أو آليا ، وبناءا علي ذلك ما نراه من ترابط بين الاسباب والمسببات أو العلل والمعلولات إنما هو بحسب العادة ، فاضطراد الحوادث الطبيعية انما هو بحسب مجري العادة ، والله وحده هو الفاعل الذي رتب هذه الاشياء بقدرته وفق علمه تعالي وبحسب إرادته ، فقدرة الله تعالي مطلقة وإرادته تعالي تخصص الممكن ببغض ما يجوز عليه من أمور متقابلة دون احتياج ألي اسباب ، فاذا شاء الله تعالي أن يحدث المسبب دون سببه أو السبب دون مسببه مع توافر الشروط وانتفاء الموانع فعل ذلك ، فإنه سبحانه إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون ذلك الشيء وفق ما أراده الله سبحانه وتعالي ، يقول إلامام إلإيجي موضحاً رأي الإمام الأشعري في هذه المسألة :(مذهب الشيخ ابي الحسن الاشعري أن جميع الممكنات مستنده عنده الي الله سبحانه وتعالي إبتداءا بلا واسطة وعلي أنه تعالي قادر مختار ، فلا يجب عنه صدور شيء منها ولايجب عليه ايضا ، ولا علاقة بوجه بين الحوادث المتعاقبة إلا باجراء العادة بخلق بعضها عقيب بعض ، كإلاحراق عقيب مماسة النار ، والرِي بعد شرب الماء ، فليس للمماسة والشرب مدخل في وجود الإحراق والرِي بل الكل واقع بقدرته تعالي واختياره ، فله أن يوجد المماسة بدون إلاحراق ، وأن يوجد إالاحراق بدون المماسة ،وكذلك الحال في سائر الأفعال إذا تكرر صدور فعل منه وكان دائما أو أكثريا يقال أنه فعله بإجراء العادة ، وإذا لم يتكرر أو تكرر قليلا فهو خارق للعدة أونادر : (فلا مؤثر إلا الله تعالي). ([1])

---

[1] شرح المواقف للقاضي عضد الدين الإيجي تأليف السيد الشريف الجرجاني ومعه حاشيتا السيالكوتي والجلبي ج١ ص٢٤٩ ، ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٤١٩هـ – ١٩٩٨م

ويقول الإمام ابن حزم ([1]) موضحا رأي الأشاعرة في هذه المسألة ايضاً :

(ذهب الباقلاني ([2])وسائرالشعرية الي أنه ليس في النار حر ، ولا في الثلج برد ، ولا في الزيتون زيت ، ولا في العنب عصير ، ولا في الانسان دم ..... وأن الله تعالي خلق كل حر نجده

---

[1] هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ،ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ /٩٩٤م وكان أبوه وزيرا للحاجب المنصور وعاش حياة أبناء الوزراء والأمراء في بداية أمره غير أن سقوط الدولة العامرية أطاح فجأة بمجد أسرته وكان في بداية أمره شافعي المذهب ولكنه بعد ذلك انتمي إلي المذهب الظاهري وهو مذهب يرفض القياس الفقهي الذي يعتمده الفقه الإسلامي وينادي بوجوب وجود دليل شرعي واضح من القرآن أو السنة لثبوت الحكم الشرعي.

منزلته العلمية وأهم مؤلفاته

هومجتهد مطلق وإمام حافظ فقيه ظاهري ومجدد القول به ومتكلم وأديب وشاعر ونسابة وعالم برجال الحديث ، له ردود كثيرة علي اليهود وانصاري والشيعة والصوفية والخوارج وغيرها ،يعد من اكبر علماء الأندلس وأكبر علماء الإسلام تصنيفا وتأليفا فقد الف عددا ضخما من المؤلفات التاريخية والفقهية والكلامية وغيرها منها :الفصل في الملل والأهواء والنحل ،الأصول والفروع ،التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية

الأخلاق والسير في مداواة النفوس ،طوق الحمامة بالإضافة إلي كتب أخري كثيرة في مجالات مختلفة من العلم ،وتوفي سنة ٤٥٦هـ٠ انظر :وفيات الأعيان لابن خلكان ج٣ ص١٤ ،الفصل ج١ ،ص٥ ،سير اعلام النبلاء ج١٨، ص٢١١

[2] هو القاضي ابو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني المالكي المتكلم علي مذهب الأشعري كان في علمه اوحد زمانه ،إليه انتهت إليه انتهت رئاسة المالكية في وقته بالإضافة الي تبحره في علم الكلام ، عرف بقوته في المناظرة وتوسعة العبارة وسرعة الرد وجودة الاستنباط وسعة محفوظاته وكثرتها وقدرته الهئلة علي استحضارها أثناء التأليف قال عنه ابو بكر الخوارزمي :كل مصنف في بغداد إنما ينقل من كتب الناس إلي تصانيفه سوي القاضي أبي بكر فإن صدره يحوي علمه وعلم الناس ،كما وردمثل ذلك عنه من غير الخوارزمي كقل علي بن محمد الحربي المالكي :كان يهم بأن يختصر ما يصنفه فلا يقدر علي ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه وما صنف احد خلافا إلا احتاج أن يطالع كتب المخلفين غير القاضي ابي بكر فإن جميع ما كان يذكر خلاف الناس فيه صنفه من حفظه ٠وقد جرت له عدة مناظرات سواء مع الروافض اوالمعتزلة او النصاري او غيرهم من أصحاب الملل والنحل وهي في جملتها تؤكد براعته وطول نفسه في المناظرات وتبين سعة علمه وإدراكه ،من أشهر مؤلفاته :الإبانه عن إبطال مذهب أهل الكفر

في النار عند مسنا إياها ،وكذلك خلق البرد في الثلج عند مسنا إياه ، وكذلك خلق الزيت عند عصير الزيتون والعصير عند عصر العنب والدم عند القطع والشرط).([1])

كما أكد الامام الغزالي ايضا أن الاقتران بين الأسباب ومسبباتها ليس اقتران تلازم بالضرورة،(بل هي امور ممكنه يجوز ان تقع ويجوز الاتقع ،واستمرار العادة بها مرة بعد اخري يرسخ في اذهانن جريانها علي وفق العادة الماضية ترسيخا لاتنفك عنه) ويقول في موضع آخر (الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا وبين ما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا)

والضلال ،التمهيد في الرد علي الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ،شرح ادب الجدل ،التعديل والتجريح. توفي ببغداد عام ٤٠٣هـ.انظر:سير اعلام النبلاء ج١٧ ص١٩٠ ،وفيات الاعيان ج٤ ص٢٦٩ .

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهري الاندلسي ج٣ ص٢٣٦ ،٢٣٧ ، ط المكتبة التوفيقية القاهرة

ادلة الاشاعرة علي نفي التلازم الضروري بين الأسباب والمسببات

ذكر الأشاعرة عدة أدلة عقلية علي رأيهم في هذه المسألة منها:

١ – إن الطبائع مؤلفة من أجسام وأعراض وكلاهما لايصح ان يكون فاعلاً (فلو كان الإسكار والإحراق والتبريد والشبع والري وغير ذلك من الطبائع ، لكان ذلك الطبع لايخلو من أن يكون هو نفس الجسم المطبوع أو معنيً سواه ، فإن كان نفس الجسم وجب أن يكون تناول سائر الأجسام يوجب حدوث الاسكار والشبع والري ، ومجاورة كل جسم يوجب التسخين والتبريد ؛ لقيام الدليل علي أن الأجسام كله من جنس واحد ، وقد عُلم أن الشئ إذا أوجب أمراً ما وأثر تأثيراً ما ، وجب أن يكون ما هو مثله وما جانسه موجباً لمثل حكمه وتأثيره ..... فلو وجب الشبع والري مثلاً عند تناول الطعام والشراب ، لوجب حدوث ذلك عند تناول الحصي والتراب والحنظل ، وأن يحدث الري شراب الخل لأنه من جنس الشراب .

وإن كان ذلك الطبع عرضاً من الأعراض فسد إثباته فاعلاً ، فلو جاز وقوع هذه الأفعال من الشبع والري والإسكار والصحة والإسقام من الأعراض لجاز وقوعها من الموات ، ولو جاز ذلك لجاز أن نفعل نحن جميع ذلك ؛ لأننا قادرون عالمون مُريدون ، وفي تعزر ذلك علينا دليل علي أنه أشد تعزراً علي من قصر عن صفتنا .

ولو أن هذه الأمور كانت حادثة عن طبائع هي أعراض موجوده بهذه الأجسام لم تخلو هذه الأعراض من أن تكون موجوده بالأجسام عن طبيعة أو غير طبيعة ، فإن كانت موجدة بها عن طبيعة أخري ، وجب تعلق ذلك بما لانهاية له من الطبائع ، وإن كانت موجودة عن غير طبيعة جاز أيضا وجود الشبع والري عن غير طبيعة توجب ذلك ، وهذا يبطل إثبات الطبائع إبطالاً ظاهراً . ([1])

٢ – إن الفعل لا يجوز وقوعه إلا من فاعل حي قادر مريد ، فلو جاز وقوع بعض الحوادث من الشبع والري والصحة والسقم والذة والالم من طبع ليس بحي ولا قادر ولا قاصد ، لجاز وقوع الارادة والنظر والكتابة ودقائق الصناعة والتجارة من طبع وعن طبع ليس بحي ولا قادر ولا عالم ، وهذا غير ممكن ؛ لأن سائر الحوادث محتاجة الي فاعل حي قادر مريد . ([2])

٣ – لو كانت الاسباب مؤثرةً في إيجاد مسَبباته لكثرت المسَببات عند كثرة أسبابها .

---

[1] التمهيد في الرد علي الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة للإمام ابي بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني ص ٥٦ ،٥٧ ط دار الفكر العربي .

[2] انظر المرجع السابق ص٥٧

والواقع يكذب ذلك يقول الإمام الباقلاني : (لو كان الإذكار والشبع والري ونماء الزرع حادثاً عن طبع الشراب والطعام والسقي والتسميد وحمي الشمس ، لوجب أن تزداد هذه الأمور ما كانت الأجسام محتملة لها عند وجود أمثال ما أوجب ذلك وتناولها ، فكان يجب أن يزيد الزرع وينمو وإن بلغ حد النهاية في مستقر العادة إذا أُديم سقيه وأُكثر تسميده وإظهاره للشمس ، وأن توجب له هذه الأُمور في غير مواعيد زرعه حتي يزيد أبداً وينمو ..... ، وفي علمنا أن السقي و التسميد يعود بتلفه إذا بلغ مقداراً ما ، أو في غير وقت نمائه دليل علي سقوط ما قالوا .

وكذلك فلو أن إنساناً أكل وشرب فوق شبعه ، لم يحدث له أبداً من الشبع والري ما يحدث عند الحاجة إلي تناول الطعام والشراب ، بل يصير ذلك ضرراً وألماً ، وإذا كان هذا هكذا وجب بطلان ما قالوه من فعل الطبائع وإيجابها لهذه الأشياء) ([1])

٤ – إن الدليل علي أن الأسبابَ مؤثرةٌ في حدوث مُسَبباتها عند من قال بذلك هو المشاهدة ، والمشاهدة لا تصلح أن تكون دليلاً علي ذلك .

ويوضح الإمام الغزالي هذه المسألة بمثال هو الإحتراق في القطن عند ملاقاة النار بقوله : فإنا نجوز وقوع الملاقاة بينهما دون الإحتراق ، ونجوز حدوث إنقلاب القطن رماداً محترقاً دون ملاقاة النار وهم ينكرون جوازه ، ويقولون أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهي فاعل بالطبع لا بالإختيار فلا يمكنه الكف عما هو في طبعه بعد ملاقاته لمحلٍ قابلٍ له ، وهذا مما ننكره ، ونقول : فاعل الاحتراق بخلق السواد في القطن والتفرق في أجزائه وجعله حراقاً أو رماداً هو الله تعالي ..... وليس لهم دليل علي أن النار هي الفاعل إلا مشاهدة حصول الاحتراق منذ ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل علي الحصول عندها ولاتدل علي الحصول بها وأنه لا علة له سواها ..... فالوجود عند الشئ لا يدل علي أنه موجود به . ([2])

شبهه وردها :

والقول بأن ارتباط المسَببات في الوجود بأسبابها أمر عادي يرجع في وجوده إلي قدرة الله تعالي وإرادته قد يؤدي إلي عدم الوثوق في القوانين الطبيعية أو صعوبة وجود هذه القوانين اصلاً ، وإمكان وقوع خوارق للعادات ليست من قبيل المعجزات أو عدم الثقة في حواسنا ، أورد الإمام الغزالي هذه الشبه ورد عليها بقوله : (وإذا ثبت أن الفاعل بخلق الاحتراق بإرادته عند ملاقاة القطن النار امكن في العقل الا يخلق الإحتراق مع وجود الملاقاة ، فإن قيل فهاذا يجر الي ارتكاب محالات شنيعة فإنه إذا أنكر لزوم المسَببات عن أسبابها وأُضيفت إلي إردة مخترعها ولم يكن للإرادة أيضا منهج مخصوص معين ، بل أمكن تفننه وتنوعه فليجوز كل واحد منا أن يكون بين يديه سباع

---

[1] التمهيد ص ٥٧ ، ٥٨

[2] تهافات الفلاسفة ص ٢٣٩ ، ٢٤٠

ضارية ونيران مشتعلة وجبال راسية وأعداء مستعة بالأسلحة لقتله وهو لا يراها ، لأن الله تعالي ليس يخلق الرؤيا له ، ومن وضع كتاباً في بيته فليجوز أن يكون قد انقلب عند رجوعه إلي بيته غلاماً أمرداً عاقلاً متصرفاً ، أو أنقلب حيواناً ، ولو ترك غلاماً في بيته فليجوز أنقلابه كلباً ، أو ترك الرماد فليجوز أنقلابه مسكاً وانقلاب الحجر ذهباً والذهب حجراً ، وإذا سئل عن شئ من هذا فينبغي أن يقول : لا أدري ما في البيت الآن، وإنما القدر الذي أعلمه أني تركت في البيت كتاباً ولعله الأن فرساً قد لطخ بيت الكتب ببوله وروثه ، وأني تركت في البيت جرة من الماء ولعلها الأن أنقلبت شجرة تفاح ، فإن الله تعالي قادر علي كل شئ ، وليس من ضرورة الفرس أن يُخلق من النطفة ولا من ضرورة الشجرة أن تُخلق من البذرة ، بل ليس من ضرورة الشجره أن تخلق من شئ فلعله خلق أشياء لم تكن لها وجود .....

ويجيب الإمام الغزالي علي ذلك بقوله : نحن لا نشك في هذه الصورة التي أورتموها ، فإن الله تعالي خلق لنا علماً بأن هذه الممكنات لم يفعلها ، ولم ندع أن هذه الامور واجبةً ، بل هي ممكنةً يجوز أن تقع ويجوز أن لاتقع ، واستمرار العادة بها مرة بعد اخري يرسخ في أذهاننا جريانها علي وفق العادة الماضية ترسيخاً لا تنفك عنه ..... فإن خرق الله العادة بإيقاعها في زمان تُخرق العادات فيه إنسلت هذه العلوم عن القلوب ولم يخلقها ، فلا مانع إذا من أن يكون الشئ ممكناً في مقدورات الله تعالي ويكون قد جري لنا العلم بأنه ليس يفعله في ذلك الوقت . ([1])

وأكد كلامه أيضاً في هذه المسئلة في حديثه عن المقدمات اليقينية التي تصلح للبراهين ومنها المُجربات وذلك في قوله : (المجربات وقع التصديق بها من الحس بمعاونة قياس خفي ، كحكمنا بأن الضرب مؤلم للحيوان ، وكذلك القطع مؤلم وجز الرقبه مُهلك والخبز مُشبع ..... فإن الحس أدرك الموتي مع جز الرقبه ، وعرف التألم عند القطع بهيئاتٍ في المضروب ، وتقرر ذلك علي الذكر فتأكد منه عقد قوي لاشك فيه ..... فإن قال قائل كيف تعتقدون هذا يقيناً والمتكلمون شكوا فيه وقالوا : ليس الجز سبباً للموت ولا الأكل سبباً للشبع ..... ولاكن الله تعالي يخلق الموت والشبع وغيرهما عند جريان هذه الأُمور لا بها ؟

قلنا : قد نبهنا علي غور هذا الفصل وحقيقته في كتاب (تهافت الفلاسفة) والقدر المحتاج إليه الأن أن المتكلم إذا اخبره بأن ولده جُزت رقبته لم يشك في موته وليس في العقلأ من يشك فيه ..... وأما النظر في أنه هل هو لزوم ضروري ليس في الامكان تغييره ، أو هو بحكم جريان سنة الله تعالي لنفوز مشيئه الأزليه التي لا تحتمل التبديل و التغيير ؟

فهو نظر في وجه الأقتران لا في نفس الأقتران فليفهم هذا وليعلم أن التشكك في موت من جُزت

---

[1] تهافت الفلاسفة ص ٢٤٥ ، ٢٤٦

رقبته وسواس مجرد ، وأن اعتقاد موته يقين لا يستراب فيه) . ([1])

سبب قول الأشاعرة بنظرية العادة :

وسبب قول الأشاعرة بنظرية العادة في علاقة الاسباب بالمسَببات يرجع إلي قولهم بعدم وجوب اي شئ علي الله تعالي ، وأن علمه محيط بكل شئ ، وأن له الإرادة المطلقة في كل ما يتعلق بالقوانين الطبيهية المنظمة للعالم وبك ما يتعلق بشئونه ، فهو إن شاء وجود المسببات عند وجود أسبابها وانتفاء الموانع أوجدها ، وإن شاء عدم وجودها لم يوجدها ، ولا يجب علي الله تعالي شئ ، وليس من افعاله في مخلوقاته ما يصدر عنه بالعلية المحضة والإستلزام الضروري بدون علم وإرادة ، وعلي ذلك فكل ما في العالم من حوادث أو موجودات من فعله تعالي وخلقه وبإرادته ، لا مؤثر في وجودها أو إعدامها أو حركتها أو القوانين المنظمة لها أو اي شئ يتعلق بها إلا الله سبحانه وتعالي مصداقاً لقوله تعالي □ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ □ ([2]) فالله تعالي هو الخالق وهو وحده الموئثر في إيجاد كل الموجودات أو إعدامها ، وحوادث العالم تقع بقدرته تعالي وإرادته وحكمته فقط ، أما القول بأن قوانين الطبيعة مؤثرة بذاتها أو تسير وفق ماهيات الأشياء فهذا ما رفضه الأشاعرة ، ومن ثم فالعادة ليست قاعدة ضرورية ، والجواهر والذرات المكونة للعالم مجتمعة بقدرة الله تعالي وإرادته وليس بين بعض هذه الذرات وبعضها الأخر صلة ذاتية أو ضرورة ذاتية ، أي أنها لا تجتمع من نفسها بإيجاب الخلقة بل إجتماعها أو أفتراقها متوقف علي قدرة الله سبحانه وإرادته .

ومن الأسباب المهمة التي جعلت الاشاعرة تقول أن العلاقة بين الأسباب والمسببات في الأمور الطبيعية علاقة عادية اي بجريان العادة فقط وليست علاقة ضرورية الردعلي الفلاسفة القائلين بأن هذه الحوادث الطبيعية تفيض من مبادئ الحودادث ولكن الاستعداد لقبول الصور يحصل بهذه الاسباب باللزوم والطبع لا علي سبيل التروي والاختيار ، وإنما تفترق المحال في القبول لاختلاف استعدادها،فإن الجسم الثقيل يقبل شعاع الشمس ويرده حني يستضيء به موضع اخر، والهواء لا يمنع نفوز نوره والحجر يمنع ،وبعض الأشياء يلين بالشمس وبعضها يتصلب وبعضها يبيض وبعضها يسود،والمبدا واحد وللآثار مختلفة لاختلاف الاستعدادات في المحل ،فكذلك مباديء الوجود فياضة بما هو صادر منها ، ولا منع عندها ولابخل وإنما التقصير في القوابل أي الأشياء المستقبلة لهذا الفيض .

---

[1] معيار العلم في المنطق للإمام ابي حامد الغزالي ص ١٨٠ ، ١٨١ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعه الأولي ١٤١٠هـ ، ١٩٩٠م

[2] سورة الزمر الاية ٦٢

ويبين الغزالي ان رأي الفلاسفة في هذه المسالة يتعارض مع إمكان وقوع المعجزات ، فبناءا علي قول الفلاسفة بثبات طبائع الأشياء ولزومها في الأمور الطبيعية انكروا وقوع بعض المعجزات الحسية كإلقاء النبي إبراهيم عليه السلام في النار وخروجه منها دون أن تصيبه ،

وفي بيان ذلك يقول الإمام الغزالي : (ومن هذا المعني أنكروا وقوع إبراهيم –صلوات الله عليه وسلامه – في النار مع عدم الإحتراق وبقاء النار نارا ، وزعموا أن ذلك لايمكن إلابسلب الحرارة من النار ،وذلك يخرجها عن كونها نارا ، أوبقلب ذات إبراهيم –عليه السلام – ورده حجرا أوشيئالا تؤثر فيه النار ، ولا هذاممكن ،ولاذلك ممكن) ([1])،وبناءا علي قول الفلاسفة بذلك

أرادت الأشاعرة أن توضح أن الله سبحانه وتعالي علي كل شيء قدير ،فهو إذا شاء سلب النار خصائصها وقد تحقق ذلك بالفعل للنبي إبراهيم –عليه السلام– حيث جعلها بردا وسلاما عليه،

وكذلك لك الأمور الطبيعية التي يحدث بعضها عقيب بعض لايمكن أن يقال عن الأول أنه فاعل الثاني ، فالنار مثلا ليست فاعلة للإحتراق ولا الطعام فاعل للشبع ،ولا الدواء فاعل للصحة ،كل ذلك لايتم إلا بإرادة الله تعالي.

[1] تهافت الفلاسفة ص ٢٤٣

المبحث الثالث: رأي المعتزلة في هذه المسألة

قبل أن اتكام عن رأي المعتزلة في هذه المسألة ينبغي أن أشير أولاً إلي نظرية التولد عندهم

وذلك لتعلق هذه النظرية برأيهم في نظرية السببية ، والفعل المتولد هو الفعل هو الذي يقع بسبب الشخص ويكون خارجا عن اختياره ، فهو ليس إراديا محضا ، لأنه – بحسب تعبير الإسكافي– تهيأ وقوعه علي الخطأ دون القصد إليه وإراده له (كنحو ذهاب الحجر الحادث عند دفعة الدافع له ،ولالم الحادث عند الضرب ،واللذة الحادثة عند أكل الشيء ، وذهاب الحجر عند الدفعة ،وذهاب السهم عند الإرسال .....وهكذا ([1])وهذا الفعل وقع بسبب الإنسان ،وعلاقة السبب بالمسبب عند المعتزلة هي علاقة ضرورية ،فإن اطلق انسان سهما فقتل به طفلا دون قصد منه فإن مقتل الطفل نتيجة إصابته بالسهم فعل ضروري .

ذلك ما اتفق عليه المعتزلة وقد تمسكوا بفكرة الضرورة في العلية في العالم الطبيعي ، وأن للأجسام طبيعة ذاتية تحتم ضرورة العلية ، ولا يعني ذلك تجاهل فعل الله في االأشياء فكل شيء يتم بتسخيره ومشيئته ، فقد طبعت الأجسام علي أن تتحرك ويتفاعل بعضها مع بعض وأن تنمو الكائنات الحية وتتوالد بسبب خصائصها الذاتية ، وبناءا علي ذلك أرجعت المعتزلة الترابط الضروري بين الأسباب ومسبباتها او العلل ومعلولاتها في الأشياء الطبيعية الي طبيعة هذه الأشياء في ذاتها ،والطبيعة هي القوة السارية في الأجسام، بها يصل الجسم الي كماله الطبيعي)([2]) وما كان من طباع الشي فغير مفارق له ،وما يميز الأفعال المطبوعة اي الواقعةعن علة ذاتية موجبة هي أنها ليس للإرادة الذاتية دور في فعلها ،وفي بيان ذلك يقول النظام :(إن المطبوع غير قادر علي ما فعله ولا علي تركه ولا مختار ،ولا مؤثر له علي غيره) .([3])

---

[1] في علم الكلام د / احمد صبحي ج١ ص ٢٠٠

[2] مقالات الاسلاميين واختلاف المصليين ج٢ ص٨٦ ،٨٧

[3] التعريفات للجرجاني ص١٢٢ ، ط عيسي الحلبي ١٣٥٧هـ ، ١٩٣٨م

وقد اورد الشهرستاني عن معمر بن عباد السلمي ([1]): (إن الله تعالي ام يخلق شيئا غير الأجسام ، فأما الاعراض فإنها من إختراعات الأجسام ، إما طبعا كالنار التي تحدث الإحراق ،والشمس التي تحدث الحرارة ،والقمر الذي يحدث الحركة والسكون والاجتماع والافتراق ،ثم الأجسام أحدثت الأعراض باعتبار أن كل ما سبق من حياة وموت وسمع وبصر ولون وطعم ورائحة ما هو إلا عرض في الجسم من فعل الجسم بطبعه ، والأصوات عنده فعل الأجسام المصوته بطباعها ، وفناء الجسم عنده فعل الجسم بطبعه ، وصلاح الزروع وفسادها من فعل الزروع عنده ، وزعم أيضاً أن فناء كل فانٍ فعل له بطبعه ، وزعم أنه ليس لله في الأعراض صنع ولا تقدير) . ([2])

كما أورد الإمام الأشعري عنه قوله :إن الأجسام تفعل الأعراض بطبعها وذلك في قوله :

(قال معمر : الجسم هو الطويل العريض العميق ،وأقل الاجسام ثمانية أجزاء فإذا اجتمعت الأجزاء وجبت الأعراض ،وهي تفعلها بإيجاب الطبع، وان كل جزء يفعل في نفسه ما يحله من الأعراض) .([3])

ومن هذه الأقوال التي وردت عن معمر يتبين لنا أنه قال بلزوم المسببات عن أسبابها لزوما طبيعيا دون أن يكون للإرادة الإلهية دخل في إيجادها .

ويؤكد ذلك ايضا قول الإمام الأشعري :(قال المسلمون كلهم اجمعون إلا معمرا إن الله قادر علي الأعراض والحركات والسكون والألوان والحياة والموت والصحة والمرض والقدرة والعجز وسائر الأعراض وقال معمر بالتعجيز لله ،وأنه لايوصف القديم بأنه قادر إلا علي الجواهر ،وأما الأعراض فلا يجوز أن يوصف بالقدرة عليها ،وأنه ما خلق حياة ولا موتا ولا صحة ولا سقما ولا قوة ولا عجزا ولا لونا ولا طعما ولا ريحا ،وأن ذلك أجمع فعل الجواهر بطبائعها) . ([4])

---

[1] معتزلي من الغلاة من أهل البصرة سكن بغداد وناظر النظام وكان أعظم القدرية غلوا انفرد بمسائل منها :ان الإنسان يدير الجسد وليس بحال فيه ،والإنسان عنده ليس طويل ولاعريض ولا ذي لون وتأليف وحركة ولا حال ولا متمكن وإنما هو شيء غير هذا الجسد ،وتنسب إليه طائفة تعرف بالمعمرية ٠توفي عام ٨٣٠م٠ (الاعلام للزركلي ج٧،ص٢٧٢)

[2] الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ٦٥

[3] مقالات الإسلاميين ج٢ ص٦

[4] المرجع السابق ج٢ ص٢٢٧

ومما يؤكد هذا الرأي عنده ايضا قول القاضي عبد الجبار (حكي عن معمر أنه كان يقول :ما وجد في حيز الإنسان فهو فعله ،وما جاوز حيزه فهو فعل ما وجد فيه طباعا ،وكذلك كان يقول في سائر ما يفعله تعالي أنه فعل الجسم بطبعه ،وعلي الرغم من ورود كل هذه الأقوال التي تبين مذهب معمر في هذه المسألة إلا اننا نستطيع أن نقول إن الخياط أعطانا فكرة واضحة عن مذهب معمر في هذه المسألة وذلك في رده علي ابن الراوندي الذي قال عن معمر (وكان يزعم أن الوان السماوات والأراضين وما بينهن وكل ذي لون وطعومهن وارايحيهن وحرهن وبردهن فعل لغير الله)وفي رد الخياط علي ذلك يقول :(أعلم علمك الله الخير أن معمرا كان يزعم أن هيئات الأجسام فعل للأجسام طباعا ،علي معني أن الله هيأهاهيئة تفعل هيئاتها طباعا)([1])

ونفهم من ذلك أن معمرا يقول بأن الله تعالي هو الذي خلق الأجسام علي طبيعة أو هيئة بحيث تنشيء بطبيعتها أعراضا في نفسها ،وبذلك يكون قد أثبت تأثيرا لبعض الأشياء الطبيعية في البعض الاخر والله سبحانه وتعالي هو الذي هيأها ان تفعل ذلك ،فالخياط المعتزلي لم ينف عن معمر القول بفعل الطبائع وإنما أثبت أنه يرجع هذا الفعل للطبائع إلي كونه من خلق الله تعالي ،أي أن الله تعالي خلق فيها الطبيعة التي يمكن عن طريقها إيجاد هذه الأعراض .

لكن الإمام الأشعري نقل عنه أنه ذكر أن خلق الله تعالي للأعراض مشروط بقبول الأجسام لها مثال ذلك: قبول الجسم للتلوين فالباريء عز وجل (إذا لون الجسم فلا يخلو أن يكون من شأنه أن يتلون أم لا،فإن كان من شأنه أن يتلون فيجب أن يكون اللون بطبعه ،وإذا كان اللون بطبع الجسم فهو فعله ،ولا يجوز أن يكون بطبعه ما يكون تبعا لغيره ،كما لايجوز أن يكون كسب الشيء خلقا لغيره ،وإن ام يكن طبع الجسم أن يتلون جاز أن يلونه الباريء فلا يتلون)

فقبول التأثير والإنفعال يكون بحسب الجسم بوصفه العلة القابلة لابحسب العلة الفاعلة فقط .

وإذا صح هذا الكلام عن معمر فهو متأثر فيه بكلام أرسطو الذي ذهب إلي القول بأن (للهيولي بوصفها علة أثرا فعالاً وهي قوة وإمكانية محضة ،ومع ذلك فلها تأثير في قبول الصور أو عدم قبولها).([2])

٢-النظّام ([1])

---

[1] الإنتصار ص١٠٠

[2] الحرية المسؤلة في الفكر الفلسفي الإسلامي د / سامي نصر لطف ص٨٩ ط مكتبةالحرية الحديثة جامعة عين شمس

علي الرغم من اتفاق النظام مع معمر في القول بإثبات الطبائع إلا أنه يختلف عنه اختلافا صريحا في القول بأن هذه الطبائع من خلق الله تعالي وفي توضيح ذلك يقول القاضي عبد الجبار :(وقال إبراهيم يعني ابن سيَّار النظَّام : كل ما جاوز حيز الإنسان فهو فعل الله جل وعز بإيجاب الخلقة ،بمعني أنه تعالي طبع الحجر طبعا وخلقه خلقاً إذا دفعته ذهب).([٢])

وذكر الشهرستاني عنه ايضا هذا الرأي فيما رواه عن الكعبي بقوله (وحكي الكعبي عنه –أي عن النظام –أنه قال :أن كل ما جاوزحد القدرة من الفعل فهو من فعل الله تعالي بإيجاب الخلقة ،أي أن الله تعالي طبع الحجر وخلقه خلقة إذا دفعته اندفع ، وإذا بلغت قوة الدفع مبلغها عاد الحجر الي مكانه طبعا).([٣])

---

[١] هو إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري ،اختلف في عام ولادته ما بين عامي ١٨٥هـ،١٦٠هـ(وكان من الموالي) تتلمذ في الاعتزال علي أبي الهذيل العلاف ،ثم انفرد عنه وكون له مذهبا خاصا عرف بمذهب (النظامية)وكان له ناحيتان بارزتان :ناحية أدبية ،وناحية كلامية فهو من الناحية الأدبية قد عرف بالغوص في المعاني الدقيقة وصوغها في قالب ظريف وكان ذاثقافة أدبية واسعة فهويحفظ كثير من الأشعار والأخبار ،وثقافة دينية فقد روي ابن المرتضي أنه قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها ،بلإضافة إلي معرفته الواسعة بالأحكام الفقهية وثقافته الفلسفية فقد قرأ بعض كتب أرسطو وردعليه ،قال المرتضي :ذكر جعفر بن يحي البرمكي أرسطو طاليس ،فقال النظام :قد نقضت عليه كتابه فقال جعفر : كيف وأنت لا تحسن أن تقرأ ؟ فاندفع النظام يذكر شيئا فشيئا وينقض عليه وكان من أثر ايمانه بسلطان العقل جرأته علي في نقد الصحابة ووضعهم موضع سائر الناس وتشريح اعمالهم السياسية وآرائهم الفقهية بالإضافة إلي أنه كان شديد الجرأة علي المحدثين ٠

أما عن آرئه الكلامية فقد اهتم بالدفاع عن الإسلام والرد علي الملحدين والدهريين ،كما بحث في مسألة الجزء الذي لا يتجزء أو (الذرة) والطفرة والحركة والسكون وغيرها من المسئل الكلامية ٠

وتوفي في بغداد واختلف في سنة وفاته مابين ٢١٢هـ،٢٢٩هـ انظر :(إبراهيم بن سيار النظام وآرآؤه الفلسفية والكلامية د/ ابو ريده ،ص٥: ٢٠ ط الهيئة العامة للكتاب،ضحي الإسلام لاحمد أمين ح٣ ط مكتبة النهضة المصرية ط٧ ،الاغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج١٨ ص١٩٠ ،الملل والنحل ج١ ص٦٤

[٢] المغني في ابواب التوحيد والعدل ج٩ ص١١

[٣] الملل والنحل ج١ ص٥٩

وذكر الإمام الأشعري نفس هذا الرأي عن النظام وذلك في قوله (وكان النظام يقول إن ما حدث في غير حيز الإنسان فهو فعل الله سبحانه بإيجاب خلقه للشيء كذهاب الحجرعند دفعة الدافع وانحداره عند رمية الرامي به وتصاعده عند زجة الزاج به صعدا ،وكذلك الإدراك من فعل الله سبحانه بإيجاب الخلقة ،ومعني ذلك :أن الله سبحانه طبع الحجرطبعاً إذا دفعه دافع أن يذهب ،وكذلك سائر الأشياء المتولدة) . ([1])

ويؤكد ابن الراوندي نفس الرأي عن النظام بقوله قال النظام (إن اصل ما يعتقد في الأجسام أنه محال أن يعمل الجوهر ما ليس في طباعه عمله ،وأن يستفعله خالقه ما ليس في جوهره فعله ،ولو قيل له :أيقدر الله أن يخترع الحر مبرداً والبرد مسخناً وأن يقهرهما علي ما ليسفي جوهرهما ؟ لأحال السؤال .

وما ذكره ابن الراوندي عن النظام من أنه كان يحيل القول بأن الله تعالي يقدر أن يخترع البرد مسخناً والحر مبرداً فهذا شيء اهل التوحيد كلهم يوافقونه عليه *). ([2])

وإذا كان الله تعالي خلق الأشياء الطبيعية بنظام معين لا يمكن أن يتخلف وحده ،ولكن تخلفه واختراق نواميسه لا يتم إلا بإرادة الله وحده الذي طبع نواميسه علي ذلك ،وفي توضيح ذلك يقول الخياط :(إن إبراهيم كان يزعم أن الله قهر الأشييياء المتضادات علي الإجتماع الذي ليس في جوهرها إذا خُليت وما هي عليه ،فأما إذا مُنعت مما هي عليه من المنافرة وقُهرت علي الاجتماع فإن من جوهرها وشأنها الاجتماع عند القهر لها ،كما ان من جوهرها وشأنها المنافرة عند تخليتها وما هي عليه ،وهذا شيء أكثر الخلق شركاء إبراهيم فيه وهو أمر واضح غير غامض ولا خفي ،فإن كان من شأن الماء السيلان فيمكن منعه من ذلك ،ومن شأن الحجر الثقيل الانحدار فقد يمنع منه ومن شأن النار التلهب والصعود علواً فقد تمنع من ذلك فتأخذ سفلا).([3])

وهذا الكالم يعني أن الكون إذا كان محكوما بقوانين طبيعية فإن الله تعالي هو الذي خلقه بهذه الكيفية أو هذه الطبيعة التي هي سبب لكل المتغيرات التي تحدث للأجسام في العالم وهذه الطبيعة لا يمكن أن تتخلف عن نظامها الذي فطرها الله عليه إلا بقهره لها أي أنه يمكن أن ينفك هذا التلازم الضروري بين المسبَبات وأسبابها إذا أراد الله ذلك فقط وبناءاعلي ذلك تصبح المعجزات الحسية التي

---

[1] مقلات الإسلاميين ج٢ ص ٨٩

[2] الإنتصار ص ٩١ * لعله يقصد بأهل التوحيد هنا من توافق معه في هذا الرأي وليس كل اهل التوحيد لأن الكثير منهم لايوافقونه علي هذا الرأي

[3] المرجع السابق ص٩١

أيد الله سبحانه بها أنبياءه أمرا ممكنا عند النظام ولا تتعارض مع السببية أو القوانين ألطبيعيه التي سيَّر الله تعالي الموجودات الطبيعية عليها .

وقد ترتب علي رأيه في هذه المسألة رأيه في إعجاز القرآن الكريم إذ يقرر أن القرآن الكريم معجزٌ بالصرفه ، أي أن الله تعالي صرف عقول الناس عن الأتيان بمثله ، ولو خلاهم لكانوا قادرين علي الإتيان بسورة من مثله في البلاغة والفصاحة ، أما وجه إعجازه فهو إخباره عن الأحداث الماضية والآتية وفي توضيح ذلك يقول الشهرستاني : (قوله في إعجاز القرآن أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الأهتمام به جبراً وتعجيزاً حتي لو خلاهم لكانوا قادرين علي أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً) . ([1])

ويقول الإمام الأشعري : (وقال النظام الآية والأُعجوبة في القرآن مافيه من الأخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحداثهما فيهم).([2])

[1] الملل والنحل ج١ ص٦٠

[2] مقالات الإسلاميين ج١ ص ٢٩٦

٣ – بشر بن المعتمر [١]

وذهب بشر بن المعتمر الي القول بأن (الإنسان فاعل الأعراض المتولَدة عن فعله كالألوان والطعوم والروائح لا بمعني أنه خالق لها وإنما بمعني قدرة الإنسان علي فعلها) . [٢]

ويقول الشهرستاني : (زعم بشر بن المعتمر أن اللون والطعم والرائحة والإدراكات كلها من السمع والرؤية يجوز أن تحصل متوَلدة من فعل العبد إذا كانت اسببها من فعله) . [٣]

ونأخذ مما سبق أن المعتزلة مع إقرارها بوجود طبائع في الأمور الطبيعية إلا أنهم يقرون أن الله تعالي هو خالق هذه القوانين الطبيعيه وهو الذي هيأ الأجسام علي هذه الحالة ورتبها علي هذا الترتيب فلا حتمية طبيعية عند المعتزلة كحتمية بعض الفلاسفة الذين أنكروا وجود قدرة إلاهية خالقة للكون وقالوا إنا الكون مرتب علي ما هو فيه بطبيعته.

ثالثاً رأي الإمام ابن حزم الظاهري :

توسط الإمام ابن حزم الظاهري بين رأي الأشاعرة القائلين بنفي التلازم بين المسببات والأسباب في الوجود في الأمور الطبيعية والمثبتين لها وقال إن هناك تلازماً بين المسببات والأسباب وأن في الأشياء طبائع ولكن هذه الطبائع من خلق الله تعالي وفي بيان ذلك يقول (ذهبت طائفة إلي أن النار كامنة في الحجر ، وذهبت طائفة إلي إبطال هذا وقالت : إنه لا نار في الحجر اصلاً ، وكل طائفة منهما فإنها تفرط علي الأخري فيما تتدعي عليها وكلا القولين جنون محض ، ومكابرة

---

[١] هو أبوسهل الهلالي مؤسس فرع الإعتزال في بغداد ،وله ناحيتان بارزتان ،الناحية الأدبية والناحية الإعتزالية ففي الأدب فيعد من اوائل المؤسسين لعلم البلاغة ،قال عنه الجاحظ قد تعرض لأمور أساسية في البلاغة لم أرها لأحد من قبله ، وله أشعار كثيرة أكثرها يتعلق بالديانات والمذاهب ،أما مذهبه في الاعتزال فاهم السائل التي تكلم فيها (المسؤولية) فقد ذكر الشهرستاني أنه هو الذي أحدث القول بالتولد ومما يتصل بالمسؤلية ايضا اعمال الاطفال ومرتكب الكبيرة الذي تاب ثم عاد لارتكابها من أشهر تلامذته ابو موسي المردار ،وثمامةابن الأشرس وأحمد بن أبي دأواد،وتوفي عام ٢١٠هانظر ضحي الاسلام لاحمد امين ج٣ ص١٤٢،١٤١

[٢] في علم الكلام د / احمد صبحي (المعتزلة) ص٢٧٢

[٣] الملل والنحل ج١ ص٦٧

للحواس والعقول ، والحق من ذلك أن في الأشياء ما هو كامن كالدم في الإنسان والعصير في العنب والزيت في الزيتون والماء في كل ما يعتصر منه ..... ومن الأشياء ماليس كامناً كالنار في الحجر والحديد ، لكن في الحجر والحديد قوة إذا تضاغطا إحتدم ما بينهما من الهواء فاستحال ناراً ، وهكذا يعرض لكل شئ محترق ..... وأما القول في النوي والبذور والنطف فإن في النوة وفي البذور وفي النطفة طبيعة خلقها الله في كل ذلك وهي قوة تجتذب الرطوبات الواردة عليها من الماء والزبل ولطيف التراب الوارد علي النواة والبذر فيحيل كل ذلك إلي ما في طبعها إحالته إليه فيصير عوداً ولحاءاً وورقاً وزهراً وثمراً وخوصاً وكرماً ، ومثل الدم الوارد علي النطفة فتحيله طبيعته التي خلقه الله فيه لحماً ودماً وعصباً وعضماً و عروقاً و شرايين و ظفراً وشعراً وكل ذلك خلق الله تعالي فتبارك الله احسن الخالقين) . ([1])

و في بيان رأيه في هذه المسألة ايضاً يقول في رده علي الأشاعرة : (ذهبت الأشعرية إلي إنكار الطبائع جملة ،وقالو ليس في النار حر ولا في الثلج برد ولا في العالم طبيعة أصلا ، وقالوا :إنما حدث حر النار جملة وبرد الثلج عند الملامسة ، وقالو :ولا في الخمر طبيعة إسكار ولا في المني قوة يحدث بها ما يحدث منه ،ولكن الله تعالي يخلق منه ما شاء ،وقد كان ممكنا أن يحدث من مني الرجل جملا ومن مني الحمار إنسانا ومن زريعة الكرم نخلا ،وما نعلم لهم حجة شغبوا بها في هذا الهوس أصلاً).([2])

ومن ادلة ابن حزم علي إثبات الطبائغ ايضا قوله :

إن اللغة التي نزل بها القرآن الكريم فيها من الشواهد ما يؤيد رأيه فقد ذكرت فيها ألفاظ الطبيعة والخليقة والغريزة والسجية والجبلة ،ولا يشك ذو علم أن هذه الألفاظ استعملت في الجاهلية وسمعها النبي صلي الله عليه وسلم ولم ينكرها قط ،ولا أنكرها أحد من الصحابة ولا أحد من بعدهم ومن ذلك قول أحد الشعراء

لكل امريء يا أم عمرو طبيعة ☆☆☆ وتفرق ما بين الرجال الطبائع

وقول الآخر :

[1] انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ج٣ ص ٢٣٦

[2] الفصل ج٣ ص١٨٤

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ☆☆☆ من الجود والأحلام غير عوازب[1]

كما ذكر أيضاً أن في القرآن الكريم ما يدل علي ذلك حيث اخبر الله تعالي إن النار –علي سبيل المثال – تكون برداً وسلاما ،وأن الشجر تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ،وكل المتولدات والأعراض مضافة بنص القرآن الكريم الي ما ظهر منها .

يقول ابن حزم : وقول الله تعالي يكذبهم إذ قال تعالي : □ □ □ □ □ □ □ □ □ [2] فلولا أن النار تحرق بحرها ما كان يقول الله تعالي هذا ، ويقول أيضاً عز وجل : □ □ □ □ □ [3].

فأخبر أن الشجرة تنبت بها وقال تعالي : □ .[4].

فصح أن السكر والعصير حلال مأخوذ من الثمر والأعناب ، ولو لم يكونا فيهما ما أخذا منهما .

كما يقرر ابن حزم ايضاً أن هذا أمر ثابت بالعقل فقد أنتقت الأمم كلها علي القول مثلاً : هذا احلي من العسل ، وامر من الصبر وأحر من النار[5] حيث أثبتوا للعسل الحلاوة وللصبر المرار وللنار الحر.

ومن الأدلة المهمة التي أستدل بها ابن حزم في هذه المسئلة قوله أن الأشاعرة يسمون المعجزة أمراً خارقاً للعادة ولوكان الأمر كذلك ما كانت معجزة أي لاصبح أتيانها أمر ممكن وفي بيان ذلك يقول ابن حزم : إن مذهب الأشاعرة في نفي الطبائع حداهم علي أن سموا ما يأتي به الأنبياء عليهم السلام من الأيات المعجزات (خرق عادة) ولو كان الأمر كذلك لما كانت فيها إعجاز أصلاً لأن العادة في لغة العرب : الدأب والديدان وتطلق علي ما كثر استعمال الإنسان له مما لا يؤمن من تركه إياه ولا ينكر زواله عنده ، بل هوممكن وجود غيره ومثله ، بخلاف الطبيعة التي الخروج عنها

---

[1] الفصل ج٣ ص ١٨٤

[2] سورة الأنبياء الاية ٦٩

[3] سورة المؤمنون الاية ٢٠

[4] سورة النحل الاية ٦٧

[5] انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ٢٣٧

ممتنع ، فالعادة مثل إستعمال العرب للعمامة والتلحي وحمل القناة وإستعمال بعضهم حلق الشعر وبعضهم توفيره فانتزاع العادة يشتد إلا أنه ممكن غير ممتنع ، بخلاف إزالة الطبيعة التي لاسبيل إليها . ([1])

إذاً فإنكار طبائع والقول بأن إرتباط الحوادث بعضها ببعض يرجع إلي العادة – كما يقول الاشاعرة – ويجوز خرق هذه العادة بالمعجزه الحسية أمر غير معقول ؛ لأن العقل في هذه الحالة يجيز نقض العادة بغير المعجزة الحسية أي خرق قوانين الطبيعة علي يد غير الأنبياء.

فالطبيعة عند ابن حزم تسير بنظام دقيق خلقها الله سبحانه وتعالي عليه فهي ليست مؤثرة بزاتها ومن الممكن أن يحدث تغيير في نظام الطبيعة ولايكون ذلك إلا من الله تعالي لأنبيائه فقط ، سواء تحدوا بذلك أو لم يتحدوا ، ولا يمكن وجود شئ ذلك لا لصالح ولا لساحر ولا لأحد غير الأنبياء عليهم السلام والله تعالي قادر علي إظهار الآيات أو خرق قوانين الطبيعة لغير الأنبياء ولاكنه لايفعل ذلك ويستشهد ذلك بقوله تعالي : □ □ □ □ □□ □ □ □□ □ □ □ □ □ □ .([2])

وقوله تعالي : ﷺ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ .([3])

ثم يقول فقد وجب أن كل ما في العالم مما قد رتبه الله مما هو عليه من فصوله الذاتية وأنواعه واجناسه فلا يتبدل منه شياً قطعاً إلا حيث قام البرهان علي تبدله ، وليس ذلك إلا علي أحد وجهين : إما استحالة معهودة جارية علي رتبة واحدة وعلي ما بني الله تعالي عليه العالم من استحالة المني حيواناً والنوي والبذور شجرة ونباتاً وسائر الاستحالات المعهودات ، إما استحالة لم تعهد قط ولا بني الله تعالي العالم عليها وذلك قد صح للأنبياء عليهم السلام شواهد لهم علي صحة نبوتهم .

وجد ذلك بالمشاهدة ممن شاهدهم ، ونقل إلي من لم يشاهدهم بالتواتر الموجب للعالم الضروري ، فوجب الإقرار بذلك وبقي ما عدا أمر الأنبياء عليهم السلام علي الأمتناع ، فلا يجوز البته وجود ذلك لامن ساحر ولامن صالح بوجه من الوجوه لأنه لم يقم برهان بوجود ذلك ولا صح قط به نقل

---

[1] الفصل ج ٣ ص١٨٥

[2] سورة الانعام من الاية ١١٥

[3] سورة البقرة من الاية ٣١

وهو ممتنع أيضاً في العقل ولو كان ذلك ممكناً لاستوي الممتنع والممكن والواجب ، وبطلت الحقائق كلها و أمكن كل ممتنع .([1])

ولابن حزم كلام في تقسيم المحالات أو أنواع المحالات نذكر منها نوعين لهما علاقة بإمكانية المعجزة :

١ – **النـــوع الأول** : المحال بالإضافة إلينا كإنبات اللحية لطفل في سن العامين ، أو فك الإشكالات العويصة و استخراج المعاني الغامضة وقول الشعر البديع ، صناعة البلاغة الرائقة من ذي البلادة الشديدة و الغباوة المفرطة و هذا إذا كان ممتنعاً بيننا – إذ ليس في بنيتنا وطبيعتنا ولا من عادتنا – فهو غير ممتنع علي الذي لا بينة له ، ولا طبيعة له ولا عادة عنده ولا رتبة لازمة لفعله ، وإذا صح هذا فالنبوة أو المعجزة ممكنه الوقوع وهي بعثه قوم خصهم الله تعالي بالحكمة و الفضيلة و العصمة ، فعلمهم العلم بدون تعلم ولا تنقل في مراتبه ولا طلب له . ([2])

النـوع الثـاني : خرق القوانين الطبيعية أو الكونية يقول بن حزم (إنه قد صح أن البارئ تعالي هو فاعل كل شئ و أنه قادر علي إظهار كل متوهم لم يظهر و علمنا أنه تعالي مرتب هذه المراتب التي في العالم و مجريها علي طبائعها المعلومة منا ، والموجود عندنا ، وإنه لا فاعل علي الحقيقة غيره تعالي، ثم رأينا خلافا لهذه الرتب والطبائع قد ظهرت، و وجدنا طبائع قد أحيلت و أشياء في حد الممتنع قد وجبت و وجدت كصخرة انفلقت عن ناقة ، وعصا أنقلبت حية ، وميت أحياه إنسان ، ومئين من الناس رووا وتوضؤا كلهم من ماء يسير في قدح صغير يضيق عن بسط اليد فيه لا مادة له ، إذا وجدنا مثل ذلك علمنا أن محيل هذه الطبائع وفاعل هذه المعجزات هو الأول الذي احدث كل شئ و أن هؤلاء الرسل الذين اظهر الله سبحانه هذه الأشياء علي ايديهم صادقون فيما اخبروا به عن الله تعالي . ([3])

فهذين قسمين من المحالات محالين بالنسبة لله تعالي فهما خاضعان لعلمة المعجز ، ومن هذين النوعين تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام.([4])

أما النوعين الآخرين فهما :

---

[1] الفصل ج ٣ ص ١٧١

[2] الفصل ج ١ ص٩٠ ،٩١

[3] المرجع السابق ص٩٢ ، ٩٣

[4] الفصل ج١ ص١٧٠ ،١٧١

١ – الجمع بين المتناقضين كالقيام والقعود من الشخص في آن واحد أو كسؤال السائل هل يقدر الله تعالي أن يجعل المرأ قاعداً لا قاعداً معاً (وهذا القسم من المحالات هو محال بالنسبة لنا فقط وليس محالاً بالنسبة لله تعالي ولكنه لا يقع في الدنيا وإنما يجوز وقوعه في الأخرة .

والمحال الرابع : هو المحال المطلق وهو ما وجب علي البارئ تغييراً و هذا هو المحال لعينه الذي ينقض بعضه بعضاً ويفسد آخره أوله و هذا النوع لم يزل الله تعالي يعلمه محالاً باطلاً قبل حدوث العقل وبعد حدوثه ابدا) . ([1])

وبعد بيان هذه المحالات عند ابن حزم يمكننا القول أن النوعين الأولين وهما المحال بالإضافة إلينا كإنبات اللحية لطفل في سن العامين مثلا وقول الشعر البديع من ذي البلادة مثلاً .

النوع الثاني : فعل شئ خارق لقوانين الطبيعة أو النواميس و النظم الكونية التي سير الله تعالي الكون عليها كانقلاب العصا حية و خروج ناقة من صخرة فهذان النوعان لا يقعان إلا من الله تعالي لأنبيائه فقط للدلالة علي نبوتهم .

والمحال الثالث : و هو الجمع بين الأمور المتناقضة فهو محال وقوعه في حياتنا الدنيوية أما في الأخرة فيجوز وقوعه .

أما المحال الرابع : وهو المحال مطلقاً في الدنيا والآخرة فهو ما أوجب علي ذات الله تعالي تغييرا فهو محال قبل حدوث العقل وبعد حوثه أبدا .

[1] انظر الفصل ج١ ص١٨٨

رأي بعض السلفية [1] :

و من الذين اثبتوا الطبائع أو السببية في الأمور الطبيعية أيضاً من السلف الإمام (ابن قيم الجوزية) ويظهر لنا رأيه في هذه المسألة في حديثه عن آراء الناس في الأسباب و القوي والطبائع إذ يقول : (والناس في الأسباب و القوي و الطبائع ثلاثة اقسام : منهم من بالغ في نفيها و إنكارها فأضحك العقلاء علي عقله و زعم أنه بذلك ينصر الشرع فجني علي العقل والشرع – يشير بذلك إلي الأشاعرة – و منهم من ربط العالم العلوي و السفلي بها بدون ارتباطها بمشيئة فاعل مختار و مدبر لها يصرفها كيف أراد – يشير بذلك إلي رأي الفلاسفة – ثم يقول : وهذان طرفان جائران عن الصواب ، و منهم من أثبتها خلقاً و أمراً قدراً وشرعاً وأنزلها بالمحل الذي أنزلها الله به من كونها تحت تدبيره ومشيئته و هي طوع المشيئة و الإرادة و محل جريان حكمها عليها ليعلم خلقه انه الفعال لما يريد و أنه لا مستقل بالفعل و التأثير غير مشيئته ، و أن التعلق بالسبب دونه كالتعلق ببيت العنكبوت مع كونه سببا ..... فالإلتفات اليها بالكلية شرك مناف للتوحيد ، و إنكار أن تكون أسباباً بالكلية قدح في الشرع و الحكمة ، و الإعراض عنها – مع العلم بكونها اسباباً– نقصان في

---

[1] يقصد به عند العلماء ذلك الإتجاه المحافظ علي ظاهر النص الممسك عن التأويل المفوض للمعني فيما أشكل من ظاهر الكتاب والسنة المثبت لله تعالي من الصفات ما أثبته لنفسه وما أثبته له الرسول صلي الله عليه وسلم ،مع التنزيه من غير تشبيه وتمثيل أوتأويل وتعطيل ٠

والمتأمل في هذا التعريف الإصطلاحي يلاحظ أنه يمثل ظاهرة غير مرتبطة بالزمان والإرتباط الوثيق بما اتي به ظاهر هذين المصدرين العظيمين الكتاب والسنة وهذه يمكن إدراكها في كل زمان منذ عصر النبوة حتي يومنا هذا في دائرة الإسلام ٠

(موسوعة الفرق والمذاهب في العالم الإسلامي ص٣٧٧ ،تقديم دمحمود حمدي زقزوق ط وزارة الأوقاف القاهرة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

والمقصود به هنا اولئك الذين نحلو أنفسهم هذا الوصف وقد ظهروا في القرن الرابع الهجري وكانوا من الحنابلة وزعموا أن جملة آراءهم تنتهي إلي الإمام أحمد بن حنبل الذي أحيا عقيدة السلف وحارب دونها ، ثم تجدد ظهورهم في القرن السابع الهجري ،أحياه شيخ الإسلام ابن تيمية وشدد في الدعوة إليه وأضاف إليه أمورا أخري بعثت إلي التفكير فيها أحوال عصره ،ثم ظهرت تلك الآراء في الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر الهجري أحياه محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية ٠ تاريخ المذاهب الإسلامية للإمام محمد أبي زهرة ص ١٧٧.

العقل ، وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض و تسليط بعضها علي بعض وشهود الجمع في تفرقها و القيام بها هو محض العبودية و المعرفة وإثبات التوحيد و الشرع و الحكمة) . ([1])

ويستدل ابن القيم الجوزية علي رأيه في هذه المسألة بأن عدم القول بالعلية في الأمور الطبيعية يؤدي إلي الغاء العلوم الطبيعية القائمة علي الملاحظة و التجربة كعلم الطب فالأطباء (لا يصلح لهم علم الطب وعمله إلا بمعرفة قوي الأدوية و الأمزجة و الأغذية وطبائعها ونسبة بعضها إلي بعض ، ومقدار تأثير بعضها في بعض و انفعال بعضها عن بعض ، و الموازنة بين قوي الدواء و قوة المرض و قوة المريض ..... فصناعة الطب و عمله مبني علي معرفة الأسباب والعلل و القوي و الطبائع و الخواص فلو نفوا ذلك و أبطلوه و أحالوا علي محض المشيئة وصرف الإرادة المجردة عن الأسباب والعلل وجعلوا حقيقة النار مساوية لحيقة الماء وحقيقة الدواء مساوية لحقيقة الغذاء ليس في أحدهما خاصية و لا قوة يتميز بها عن الأخر لفسد علم الطب ..... وعلي هذا قام الوجود بتقدير العزيز العليم ، والكل مربوط بقضائه وقدره و مشيئته ..... فإذا شاء سلب قوة الجسم الفاعل منه و منع تأثيرها ، وإذا شاء جعل في الجسم المنفعل قوة تدفعها و تمنع موجبها مع بقائها و هذا لكمال قدرته ونفوز مشيئته .([2])

---

[1] مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين للإمام ابن قيم الجوزية ج١ ص١٨٣ ،١٨٤ ط مؤسسة بعينه بيروت لبنان .

[2] المرجع السابق ص ١٨٣ .

المبحث الرابع : موقف العلم الحديث من هذه المسألة :

اهتم العلماء بتفسير العلاقات التي تربط بين الظواهر الطبيعية أو الكونية أو بعبارة أخري الأسباب التي تنبئ أو تدل علي حدوث نتائج معينة لازمة إذا تحققت أو توفرت تلك الأسباب وانتفت الموانع ، و هذا الأهتمام ظهر بشكل واضح منذ عصر النهضة وهو ذلك العصر الذي بدأ في القرن الرابع عشر (هذا العصر الذي اقترن بالأعتزاز بالعقل الذي كانت السلطات الدينية في أوروبا قد استبعدته و قيدت إنطلاقه و الأهتمام الشديد بالعلم الآلي و تطبيقاته التي تهدف إلي سيطرة الإنسان علي الطبيعة لكي يصنع الوسائل ليزيد من رفاهيته) ([1])ففي حين كانت الكنيسة مصرة علي التمسك بالمنهج القياسي الأرسطي وتطبيقه علي اللاهوت و الطبيعة وتمسكها ببعض الآراء الأرسطية والبطليموسية في الطبيعة و الفلك علي السواء ورفض كل

جديد لا يوافق تفسير الكنيسة للنصوص المقدسة نري الحركة العلمية بدأت تتحرر من القيود وتتجه إلي استخدام المنهج التجريبي هذا التغيير الذي حدث في عصر النهضة اتاح للعلم أن ينمو شياء فشياء حتي قدم (جاليليو) ([2]) الأساس الصحيح للعلم فقد أعطي للعلم الحديث منهجه الكمي التجربي ، فقد حددت التجارب التي قام بها لإثبات قانون سقوط الاجسام إنموزج المنهج الذي

---

[1] اسس الفلسفة ص٥١ د/ توفيق الطويل .

[2] عالم فلكيو فيلسوف وفزيائي إيطالي له اكتشافات فلكيه ادت الي تخليد اسمه حيث اكتشف اربعة اقمار
للمشتري وهذه الاربعه تسمي اقمار جاليليو كما تسمي بعض الاجهزة الحديثه المستخدمه في هذا المجال بإسمه مركبه جاليليو الفضائيه و هي اول قمر صناعي يدور حول المشتري وقد اطلقت الامم المتحده عام
٢٠٠٩م العام العالمي للفلك حيث ناسب ذلك العام مرور اربعة قرون علي اكتشاف جاليليو للتلسكوب ،وقد نشر نظرية كوبرنيكوس و دافع عنها بقوه علي اسس فزيائيه فقام بائثبات خطا نظريه ارسطو حول الحركه
و تمسك باقتناعه العلمي ولم يحيد عنه ووقف صامدا اما الاتهامات الموجه إليه و محاكمتة امام الفاتيكان .
انظر (فلسفة العلم من الحتميه الي الاحتميه د/يمني الخولي ص١٠٩)

يجمع بين التجربة وبين القياس والصياغة الرياضية ، وبفضل (جاليليو) تحول جيل من العلماء إلي استخدام التجارب في الأغراض العلمية وقد رأي (جاليليو) باكتشاف قوانين البندول سنه ١٦٠٤م أنه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلي تدخل قوي خارجة عنها فتكونت منذ ذلك الحين فكرة القانون الطبيعي .

وهكذا أرسي (جاليليو)الأساس لنقطتين مهمتين في العلم الحيث وهما :المنهج التجريبي ،والنظرية الآلية وقال إنه من الممكن تفسير ظواهر الطبيعة بربط بعضها ببعض دون حاجة إلي تدخل قوي خارجة عنها ٠

وجاء اكتشاف (نيوتن) ([1]) لقانون الجازبية مؤيدا للمذهب الآلي بالرغم من أنه لم يكن ماديا إلا انه كان له أثرا كبيرا في الفكر العلمي ،فقد أرسي فكرة الحتمية العلمية ،وهذه الحتمية هي أهم نتيجة لفيزياء نيوتن وهي حتمية لا بالنسبه إلي غايات المستقبل بل بالنسبة إلي وقائع الماضي وهي تجعل العالم الفيزيائي اشبه بساعة ملآنة تمر آليا بمراحلها المختلفة ([2]) وقد كان علماء القرن التاسع عشر يعتقدون أن جميع الظواهر الطبيعية تخضع لمبدأ الحتمية المطلق سواء أكانت هذه

---

[1] اسحاق نيوتن هو العالم الانجليزي إسحاق نيوتن ،فيزيائي وعلم رياضي يعد من أبرز العلماء مساهمة في الفيزياء والرياضيات واحد رموز الثورة ألثورة العلمية ،ولد إسحق نيوتن في ٢٥ ديسمبر عام ١٦٤٢م ومن عمر الثانية عشر إلي السابعة عشر التحق بمدرسة الملك في جرانتهام وفي علم ١٦٦١م تم قبوله في كلية الثالوث بكمبردج ثم حصل بعددراسته علي درجة الزمالة فيها ،كما تولي مناصب أخري منها :رئاسته للجمعية الملكية ،كما كان عضوا بالبرلمان الإنجليزي إضافة إلي توليه رئاسة دار صك العملة ومن أشهر إسهاماته العلمية انه الف كتابه (الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية) الذي نشر نشر لأول مرة عام ١٦٨٧م وشمل معظم مباديء الميكانيكا الكلاسيكية ،كما قدم إسهامات مهمة في مجال البصريات وشراك (غونفريدلايبنتز) في وضع أسس التفاضل والتكامل ويعد قانون (الجازبية الارضية)هو أشهر اكتشافاته العلمية علي الإطلاق حيث أثبت أنه إذا تناسبت القوة عكسيا مع مربع المسافة فإنه يمكن للمرأ أن يحسب بالفعل الدور المداري للقمر ورجَّح أن نفس القوة هي المسؤولة الحركات المدارية الأخري وبالتالي يمكن تسميتها (الجازبية الكونية) ٠من أهم كتبه :الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية ،حول حركة الأجسام في المدارات ،ألبصريات ،ملاحظات علي سفر دانيال وسفر رؤيا القديس يوحنا ،وصف تاريخي لتحريفين مهمين للكتاب المقدس ٠ توفي عام ١٧٢٧ ودفن بدير وستمنستر بلندن

[2] الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص٤٢ ، ٤٣ د /محمود عتمان ط الدار الإسلامية للطباعه والنشر والتوزيع بالمنصورة

الظواهر تقع تحت إدراك الحواس أو تخفي عليها ،ولذا كانو يفسرون الكون وما فيه من كائنات تفسيرا حتمياً بحتا دون أن يفسحو مجال فيه للحتمال أو الإختيار ،وقد عبر الفلكي الفرنسي (لابلاس) عن مبدأ الحتمية المطلق الذي ساد في هذه الفترة بقوله :يجب علينا أن نعتبر الحالة الراهنة للكون نتيجة لحالته السابقة ،وسببا لحالته التي تأتي بعد ذلك مباشرة ،ولو استطاع ذكاء ما أن يعلم في لحظة معينة جميع القوي التي تتكون منها لستطاع أن يعبر بصيغة واحدة عن حركات أكبر الأجسام في الكون وعن حركات أخف الذرات وزنا ،ولكان علمه بكل شيء علما اكيدا ،وأصبح المستقبل والحاضر ماثلين أمام ناظريه كالحاضر تماما ،فهو يري أن كل ظاهرة تخضع في حدوثها لمجموعة من الشروط المحددة تحديداً دقيقا أي علي نحو لا يحتمل الإستثنا ،فإذا عرف المجرب شروط وجود ظاهرة ما واستطاع تحقيقها ،حدثت الظاهرة بالضرورة وفقا لرغبته وإذا انكر بعضهم إمكان ذلك الأمر ،فإنه ينكر في الوقت نفسه إمكان وجود العلم .

وقد أكد (كلودبرنارد)رأي (لابلاس)حيث قررأن الباحث إذا اجري تجربة ما ،ثم أعادها في ظروف أخري فوجد أن النتائج التي انتهي إليها في كلتا الحالتين مختلفة أو متناقضة وجب عليه ألا يسلم بوجود أي استثناء أو تناقض حقيقي ،لأن البحث الدقيق يوقفنا علي أن هذا الاختلاف أو التناقض إنم يرجع إلي تغير الظروف التي توجد فيها الظواهر . ([1])

وقد أدي ظهور نظرية التطور الداروني في منتصف القرن التاسع عشر إلي إعطاء هذا الاتجاه الآلي دفعة قوية ،لأن هذه النظرية فسرت تطور انواع الكائنات الحية وتنوع صفاتها بمضي الزمن تفسيراً آليا بحتاً لادخل فيه إلا للعوامل الطبيعية الخاصة بالتكيف مع البيئة ، ومعني ذلك ان مبدأ الحتمية أو الآلية لا يسري علي الظواهر الطبيعية فقط بل ينطبق كذلك علي الأحياء . ([2])

النقد العلمي للحتمية

أدي تقدم علم الطبيعة في القرن العشرين إلي نشأة ما يمكن أن نطلق عليه (أزمة مبدأ الحتمية) وفي توضيح هذه المسألة يقول د/محمود قاسم :(إن علم الطبيعة التقليدي كان يصور العالم كما لو كان نظاما ميكانيكيا يمكن وصفه وصفا دقيقا بتحديد أجزائه من الوجهة الميكانيكية وما يطرأ عليها من التغيرات من الوجهه الزمانية بحيث يمكن التنبؤ بتطور الظواهر في الكون علي أكمل وجه

---

[1] المنطق الحديث ومناهج البحث د /محمود قاسم ص٨٦ ط دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ١٩٦٧

[2] انظر التفكير العلمي د /فؤاد زكريا ص ١٨٤ ط مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٩٢ .

من الدقة إذا عرفنا عدداً من الحقائق التي توقفنا علي حالتها المبدئية ،لكن تبين أن القوانين الميكانيكية في علم الطبيعة التقليدي لا تصدق بالنسبة إلي العناصر الأولية التي تتركب منها الظواهر ، أجساما كانت أم سوائل أم غازات ،فقد اتضح أن عالم الطبيعة يعجز عن تحديد كل من موضع أحد الجزئيات التي تدخل في تركيب الأجسام ، ومن سرعة هذا الجزيء في الوقت نفسه ،لأنه قد لوحظ أن كل زيادة في دقة قياس الوضع المكاني للجزيء تفضي إلي زيادة مقدارالخطأ في تحديد سرعته والعكس بالعكس.

ومعني هذا أن عالم الطبيعة يعجز عن تحديد القوانين الخاصة بالامتناهيات في الصغر ، ولو أمكن تحديد هذه القوانين لاختلفت عن القوانين التي بالنسبة إلي المركبات التي تتكون من هذه الجزئيات التي لا نهاية لصغرها ، أي أن مايصدق بالنسبة للمجموع لا يمكن أن يكون صادقاً بالنسبة إلي كل عنصر من عناصره . ([1])

وبذلك يمكننا القول بأن الفيزياء القديمة كانت تدعي أنها قادرة علي إخضاع جميع الظواهر الطبيعية إلي قوانين دقيقة ، أما الفيزياء الحديثة فلا تقدم لنا إلا قوانين الاحتمال ،ويبقي دائما في كل الظواهر الفيزيائية هامش اللاتعيين .

ونتيجة لهذا تصدعت الحتمية وتسللت الاحتمية أو الاحتمالية إلي مجال العلم الحديث فانهارت الأسس التي تقوم عليها السببية أوالاسس التي يقوم عليها التعميم في القوانين الطبيعية . ([2]) وبذلك اصبح القول بأن الكون يسير ب نظام آلي ف الامور الطبيعيه امرا اصبح قولا مرفوضا من العلم و أن الارادة الالهيه سارية ف نظام الكون وصدق الله العظيم القائل في كتابه :
يَـكُوْنُ ٱلنَّـاسُ □□□□□□□□□□□□□□ ۚ□□□□□□□

[1] المنطق الحديث ومناهج البحث ص٨٧

[2] الإسلام وفلسفة العلم د / احمد رمضان ص٣٤٦ ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر بالمنصورة الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ، ٢٠٠٢م

فهرس المصادر والمراجع

اولاً : القرآن الكريم

ثانيـــا: ١- الأعلام لخير الدين الذركلي قاموس تراجم لاشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين ط دار العلم للملايين – لبنان

٢- الإسلام وفلسفة العلم د/أحمد السيد رمضان ،ط الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ،الطبعة الثانية ،١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م

٣-ابراهيم بن سيار النظام وآرآؤه الفلسفيه و الكلاميه د/ ابو ريده

٤- أسس الفلسفة د/توفيق الطويل ،ط دار النهضة العربية ،القهرة

٥-الإنتصار في الرد علي ابن الراوندي الملحد للخياط ،تحقيق د/أحمد حجازي السقا ،ط،مطبعة المدني القاهرة

٦-التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ،ط،مصطفي البابي الحلبي ١٣٥٧هـ /١٩٣٨م٠

٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم ط دار المعارف القاهرة.

٨ – تاريخ المذاهب الاسلامية للإمام محمد ابي زهرة ط دار الفكر العربي

٩-التمهيد في الرد علي الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة للإمام أبي بكر محمدبن الطيب بن الباقلاني ،ط،دار الفكر العربي القاهرة ٠

١٠- التفكير العلمي ،د/فؤاد زكريا ،ط،مكتبة مصر القاهرة ١٩٩٢م٠- تهافت الفلاسفة للإمام أبي حامد الغزالي ،تحقيق د/سليمان دنيا ،ط،دار المعارف القاهرة –سير اعلام النبلاء للامام شمس الدين محمد ابن احمد الذهبي – ط مؤسسة الرساله

١١- شرح المواقف للقاضي عضد الدين الإيجي ،تأليف السيد الشريف الجرجاني ومعه حاشيتا السيالكوتي والجلبي ،ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

١٢ – ضحي الإسلام احمد امين ج٣ ط مكتبة النهضة المصرية الطبعة السابعة القاهرة

١٣–الفكر المادي الحديث وموقف ا لاسلام منه د/محمود عتمان ،ط الدار الإسلامية للطباعة ، المنصورة ٠

١٤–الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهري ،ط المكتبة التوفيقية القاهرة.
١٥ – فلسفة العلم من الحتمية الي الاحتمية د /يمني طريف الخولي ط دار قباء القاهرة .

١٦ – كشاف إصطلاحات الفنون لمحمد علي التهانوي ، تقديم د / رفيق العجمي ط مكتبة لبنان .

١٧– في علم الكلام د/أحمد صبحي (المعتزلة)

١٨– مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين للإمام ابن قيم الجوزية ،ط،مؤسسة فؤاد بعينو ،بيروت لبنان ٠

١٩–المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ،ط،مؤسسة فؤاد بعينو ،بيروت ،لبنان ٠

المعجم الفلسفي د/جميل صليبة ،ط،الشركة العالمية للكتاب ،بيروت لبنان ،١٤١٤هـ/١٩٩٤م٠

٢٠– معيار العلم في المنطق للإمام ابي حامد الغزالي ،طدار الكتب العلمية ،بيروت لبنان الطبعة الأولي ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م

٢١– المغني في ابواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار ،تحقيق د/ توفيق الطويل وآخرون ط،الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ٠

٢٢– المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ،ط،مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية ٠

٢٣– مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للإمام أبي الحسن الأشعري ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط وزارة الأوقاف ٠

٢٤–الملل والنحل للشهرستاني ، ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧م٠

٢٥- المنطق الحديث ومناهج البحث د/محمود قاسم ،ط دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ١٩٦٧م٠

٢٦ – المنطق الوضعي د / زكي نجيب محمود ط مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الثالثة ١٩٦١ م .

٢٧-وفيات الاعيان و إنباء ابناء الزمان لابن خلكان ط النهضه المصريه ط٢ ١٩٦٤م